محمود درويش

خضراء أرضُ قصيدتى خضراءُ نهرٌ واحدٌ
يكفى لأهمس للفراشة آه ، ياأختى ، ونهرٌ واحدٌ
يكفى لإغواءِ الأساطير القديمة بالبقاء على جناح
الصقر ، وهو يبدل الرايات والقمم البعيدة ، حيث
أنشأَت الجيوشُ ممالكِ النسيان لى ، لا شعب أصغرُ من
قصيدته ، ولكن السلاح يوسع الكلمات للموتى
وللأحياء فيها ، والحروف تلمّع السيف المعلق فى
حزام الفجر ، والصحراء تنقُص بالأغانى أو تزيد

جدارية

محمود درويش أمام القضاء الفرنسى(*)

كان عجولاً وحزيناً فى زيارته الخاطفة هذا الأسبوع إلى القاهرة .

- من أين يأتيك الحزن ؟

من مسام جلدى .

- ومن أين يأتيك الفرح ؟

من بكاء الأطفال القادمين إلى الجحيم ، ومن أحذية المقاتلين الذاهبين إلى الجنة .

- الأسئلة كثيرة .

زمنى ضيق ، وحالتى النفسية أضيق . . هذه المرة سأعتذر فلست مهيأ للكلام .

- لكن اتهامك بالعنصرية .. يزعجنا .

سأكتفى بهذا السؤال .

(محاكمة محمود درويش) ...

هكذا جاء الخبر من فرنسا ، فقد رفعت لجنة العمل اليهودى هناك دعوى قضائية ضده بتهمة التحريض على (**العنصرية**) والسبب مقال نشره فى جريدة اللوموند تحت عنوان (**سؤال إلى الضمير اليهودى**) وفيه يناقش (**ليفيزل**) الكاتب اليهودى الحاصل على جائزة نوبل ، والذى

(*) جريدة الأهالى - القاهرة ١٩٨٨م .

قال (**إنه يحزن عندما يرى الجندى الإسرائيلى مضطراً لقتل طفل عربى**) ! أى إنه كان يدعو الإعلام الغربى للبكاء على المقاتل الذى اضطر لقتل الضحية !!

وفى مقال درويش استخدم تعبيراً . . إن الضمير اليهودى ملطخ بوحل الاحتلال ما لم يعلن القطيعة مع الاحتلال . . وإن مقياس النظر إلى الضمير اليهودى هو مدى ابتعاده عن الاحتلال الإسرائيلى .

ورغم أن المقال نشر منذ ٦ أشهر بهدوء فى اللوموند الفرنسية ، إلا أن الإسرائيليين قرروا بدء الحملة الإعلامية .

وللحكاية بداية أخرى . . وهذه المرة على صفحات جريدة (**يدعوت أحرنوت**) الإسرائيلية . . حيث نشرت الصحيفة قصيدة درويش عن الانتفاضة (**عابرون .. فى كلام عابر**) مترجمة إلى اللغة العبرية . . وبعد شهر من نشر القصيدة . . نشرت جريدة (**معاريف**) الإسرائيلية خبراً آخر يقول : إن محمود درويش نشر قصيدة ، يدعو فيها إلى رمى اليهود فى البحر ، ويقول إن على الإسرائيليين أن يأخذوا عظام موتاهم ويرحلوا عن أرض فلسطين .

وفى اليوم التالى لنشر الخبر . . لم يبق كاتب إسرائيلى واحد إلا وكتب مقالاً هجومياً حول القصيدة . . وتطور الهجوم والعنف إلى حد طرح الموضوع على الكنيست ؟

- ما معنى هذه الحملة الإسرائيلية ؟

طبعًا هى حملة على ما أمثله وهى محاولة للإعدام الأدبى ، ولتجريد الفلسطينى من المستوى الإنسانى ولضرب مصداقية خطابه فى الضمير العالمى . . فعندما يقدم (**بيريز**) تقريراً عن زيارته لواشنطن ومباحثاته مع

ريجان . . ويبدأ خطابه بحملة علىّ ليصل خطابه إلى قول (**إن لا معتدلين في الصف الفلسطيني وإنهم يدعون لرمينا في البحر**) .

وعندما تنشر جريدة (**يدعوت أحرنوت**) ما نشيت رئيسى يقول (**إن قصيدة درويش قد وحدت الكنيست**) ، وطبعًا لست من الخفة بقدر أن أصدق أن قصيدة من ٢٠ سطراً تهز المجتمع الإسرائيلى إلى هذا الحد . . لكنها حملة مصطنعة ؛ من أجل إعادة الأسطوانة القديمة بأن العرب لا يرضون بأقل من رمى اليهود فى البحر .

هذا من ناحية . . أيضًا هذه الحملة هى جزء من النقاش الإسرائيلى الداخلى ، أراد شامير والحكم الإسرائيلى أن يحطم بها جبهة المثقفين اليهود ، الذين اجتمعوا حول ضرورة الاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير ، وفى ضرورة الانسحاب الإسرائيلى من الضفة ، وإنهاء الاحتلال فوراً ، والذى كان أحد أشكال التعبير هو ذلك البيان ، الذى وقع عليه ١٢٠ كاتبًا إسرائيلياً ، وهو ينص على ثلاث نقاط :

١ - الانسحاب من المناطق المحتلة فى ٦٧ بما فيها القدس .

٢ - الاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير ، وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس .

٣ - إن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى للشعب الفلسطينى ؛ لذلك لجأ (**شامير**) إلى قصيدتى ؛ لاستخدامها للرد على هذا الوعى الجديد لدى الكتاب الإسرائيليين . .

- ربما المحاكمة فرصة لنا أيضاً لمحاكمة العنصرية الإسرائيلية ؟

هى مناسبة لكى نضع المفارقة فى قفص الاتهام . . والمفارقة هى أن الفلسطينى ، وهو ضحية العنصرية هو المتهم بأنه (**عنصرى**) . .

المحاكمة ستكون مثيرة للاهتمام . . وخطورتها أنها حملة إعلامية نفسية ضد إنسانية الفلسطيني . . ضد حقه في التعبير . . هل تتخيلي أن حق التعبير الفلسطيني لا يمر إلا من خلال علاقته بالإسرائيلي . .

الإعلام الغربي مهتم بالقضية الفلسطينية فقط لأنها في صراع مع إسرائيل . . يجب أن يكون الإنسان صديقًا للإسرائيليين أو عدوًا ؛ حتى يسمح له بالكلام . . مفارقة أيضًا غربية ومن طراز فريد !

- أظنك بعد ذلك عدلت عن فكرة الحوار مع اليسار الإسرائيلي ؟

الحوار مع اليسار الإسرائيلي ومع أي قوى إسرائيلية تعترف بمنظمة التحرير وبحق الفلسطينيين في تقرير المصير ، هو سياسة رسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وأنا لست ملتزمًا بهذه السياسة ، ولكني لا أستطيع أن أرحب بأي حوار مع الكتاب الإسرائيليين ، الذين شاركوا في هذه الحملة المصطنعة ، ولا أستطيع أن أقبل أن يتقدم الاحتلال الإسرائيلي بصفته احتلالاً (**مضطهداً**) ؛ لأنه للأسف أن هؤلاء المنافقين من الكتاب الإسرائيليين يتقدمون باعتبارهم ضحية أحلامي في استعادة وطني . . من هنا فالحوار لا يقف على أرضية متينة . . وإنما هو تعبير عن رغبتهم في الخروج من مأزق أخلاقي ، أوقعهم فيه الاحتلال ، ولكنهم يريدون أن يطالبوا الضحية بأن يعترف بأنه جلاد . . ولذلك فأنا حتى إشعار آخر ، لا أستطيع أن أتعامل بهذا الفهم المقلوب في حقيقة الصراع بيننا وبين الاحتلال الإسرائيلي . .

أنا لا أقول أنني سأحاور اليسار الإسرائيلي . . أو أنني لن أحاورهم كما أنني أصلاً ومن البداية لم أقم أي حوار معهم . .

- إذاً فلا سلام .. حتى ولو سلام عادل ؟

أنا لا أظن أن هناك حلاً عادلاً للقضية الفلسطينية ، منذ قرار التقسيم وحتى مشروع فاس . . هناك دائمًا سلام ممكن واقعى ، ولكن ليس هناك سلام عادل . .

فالتاريخ لا يحركه العدل ، وإنما تحركه موازين القوى ، ولأول مرة فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى تطرح الانتفاضة إمكانية حل ممكن وحل واقعى وليس حلاً عادلاً . . لأنه مهما كان شكل الحلول الممكنة الآن ، فلن يكون الحل عادلاً للطرف الفلسطينى ؛ فالطرف الفلسطينى هو المتنازل . .

- لكن الانتفاضة طرحت الحل الواقعى ، وأكدت بديهية أن الوطن هناك فى الوطن ؟

الإنسان لا يختار ظروفه وتاريخه . . هو نتاج ظروف وتاريخ ، ولذلك فإن العمل الفلسطينى فى الخارج كان رداً على ظروف موضوعية ، وعندما كان الخارج يؤسس الأداء السياسى الفلسطينى وأسميه (**الوطن المعنوى**) للفلسطينى ، والمتمثل فى الشخصية الوطنية وتعبيرها السياسى ، لم يكن ذلك نقيضًا للداخل ، وإنما كان ذلك أحد أشكال الطرق الخارجية المؤدية إلى الطريقة الداخلية إلى أن انفجرت كل عوامل الداخل المحتقنة بهذه الحلقة المتصاعدة فى سياق التاريخ النضالى للشعب الفلسطينى ، وبالتالى أنا لا أرى ضرورة للمفاضلة بين الداخل والخارج . . الداخل من الخارج والخارج من الداخل وكل عملنا فى خارج الوطن أو حول الوطن هو من أجل الوصول إلى هذه الحالة التى

يعيشها الداخل . . وبالتالى فإن الإحباط الذى كنا نشعر به ، كلما اضطررنا للانتقال من مؤقت إلى مؤقت آخر . . هذا الإحباط لم يعد له من ضرورة ، ما دام الداخل قد أمسك بزمام المبادرة . . إن الانتفاضة نجحت فى إعادة الموضوع الفلسطينى إلى صلب الاهتمام العربى اليومى ، وإلى المكانة الأولى فيما يسمى بأزمة الشرق الأوسط بالنسبة للوعى العالمى .

هذه البديهية (**بأن الوطن لا يوجد إلا فى الوطن**) وكل بديهية فى حياتنا تحتاج إلى ما يشبه المعجزة . . فهى ليست رداً أو محاكمة شعرية . . هى أكثر تعقيداً من ذلك . . فالوطن يرحل من الوطن ويعود إلى الوطن . . هو صيرورة فى الوعى ، وليس عملية جراحية . . الآن الوطن قادر على أن يعود إلى مكانه ، وهو أخطر ما فى الانتفاضة . .

إن فلسطين انتقلت من : الأسطورة والخرافى والنص الأدبى إلى المكان . . إلى الواقع ، وعلى المثقفين والأدباء العرب أن يعوا جيداً أن التضامن مع فلسطين هو تضامن مع مطالب وطنية محددة ، وليس الهروب إلى شعارات بعيدة . . عليهم أن يعوا أن الفلسطينيين هم مجتمع خاضع للاحتلال فى الداخل ، ويطالبون بجلاء الاحتلال ، وبحق تقرير المصير ، وبإنشاء دولة فلسطينية . .

تضامنا الحقيقى مع الانتفاضة هو أن نتبنى مطالب المنتفضين .

- سأكتفى بتصريحاتك هذه حتى موعد اللقاء القادم ...

* * *

يحطم صورته الخرافية المصلوبة فى الجليل !(*)

مثلما يحمى الشاعرية من الشاعرية ، سأحمى العاطفة من العاطفية ، وأخبئ انحيازى لمحمود درويش وديوانه الجديد (**جدارية**) ، الصادر قبل ٣ أشهر عن دار « رياض الريس » .

سأتجنب أزمته القلبية الحادة ، ، التى مر بها عام ١٩٩٨ بباريس ، ملامسًا الموت عن قرب . . برغم أن الديوان الجديد هو قصيدة واحدة طويلة ، هى التجسد الجمالى لتلك المنازلة الصعبة . وهو أيضًا استمرار لجملته الجمالية فى الدواوين السابقة . . فمن (**سرير الغريبة**) ١٩٩٩ والتفاته إلى شئون قلبه العاشق إلى (**جداريه**) ٢٠٠٠ والتفاته إلى شئون قلبه المتعب ، يواصل محمود درويش مشروعه الشعرى واقتراحه الجمالى صوب انتقال القصيدة والسؤال الثقافى الفلسطينى بأكمله من وضعه الأسطورى إلى وضعه الواقعى والإنسانى .

يقول محمود درويش فى إحدى اللقاءات مع الجمهور عام ١٩٩٧ بباريس :

« بدأنا فعلاً بطرح أسئلة تتصل بطبيعة تحولنا من نص أسطورى فيه الجلاد والضحية إلى إناس عاديين ، نبنى حياتنا العادية ، نعبر عن ضعفنا الإنسانى العادى ، يلتفت كل منا إلى صوته الشخصى ، نشكو المرض

(*) أخبار الأدب - القاهرة - ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٠م .

والكسل والضجر ، لا نريد أن نكون أبطالاً ولا نريد أن نكون ضحايا . . بعبارة أخرى بدأنا فى البحث عن الحياة العادية » .

فى « **جداريه** » يعود محمود درويش إلى القصيدة الواحدة . . القصيدة الديوان بعد سلسلة طويلة من القصائد القصيرة عبر الدواوين الأخيرة (**ورد أقل**) ١٩٨٦ ، (**هى أغنية .. هى أغنية**) ١٩٨٦ ، (**أرى ما أريد**) ١٩٩٠ ، (**أحد عشر كوكبًا**) ١٩٩٣ ، (**لماذا تركت الحصان وحيدًا**) ١٩٩٥ ، (**سرير الغريبة**) ١٩٩٩ . . لكنه يشارك فى (**جدارية**) تلك الدواوين جميعًا ؛ خاصة الأخيرين فى وحدة الموضوع وذلك الصعود للأنا الفردية ، ومواصلة الإيغال فى الذات فيما يشبه كتابة السيرة الذاتية .

فى (جداريه) يواجه درويش تجربة الموت واقتراب النهاية بطاقة أكبر على الحياة ، بذاكرة حية ولغة تمنحه السكينة ودقة المعنى والخلود .

يستعيد البدايات دائمًا الطفولة الأولى ، الأساطير ، الحكايات التاريخية ، الإشارات القرآنية والمسيحية لتضىء الذاكرة سيرته الذاتية ، ليس فى تاريخها الشخصى العائلى (كما فعل فى « **لماذا تركت الحصان وحيدًا** » وفى « **سرير الغريبة** ») ولكن فى تاريخها الثقافى وحقول معارفها وحضارتها . . هكذا يطل « **طرفة بن العبد** » و « **امرؤ القيس** » و«**المعرى**» ، كما تطل الحضارة الفرعونية والبابلية من خلال أسطورة (**جلجامش**) و(**أوزوريس**) . . وفى استعادة شخصيات الأسطورة محاولة للإمساك بالبداية ومحاورة قصص الخلق الأولى . . لتمتزج السيرة الذاتية بالسيرة الإنسانية .

هل هو اقتراب النهاية الذى لامسه أخيراً هو ما دفعه إلى سؤال الوجود والقصيدة ومعاودة البدايات ؟ أم هى مواصلة الاقتراح الجمالى الذى بدأه فى الدواوين الأخيرة السابقة ، يحطم صورته الخرافية المصلوبة بالجليل ، صوب صورة أبسط وأعمق إنسانية .

هذا هو اسمك
قالت امرأة
وغابت في الممر اللولبى
أرى السماء هناك فى متناول الأيدى
ويحملنى جناح حمامة بيضاء .. صوب
طفولة أخرى

(**هذا اسمى**) يكرر درويش طوال الديوان متوقفًا أمام اسمه المكون من ٥ أحرف أفقية التكوين متأملاً أحرفه حرفًا حرفًا . . تكرار نلمح فيه (**تأمل النرجس فى ماء صورته**) .

١٤٠٠ مركبة
١٢,٠٠٠ فرس .

تحمل اسمى المذهب من زمن نحو آخر ،

لكن تكرار الاسم بالديوان يحمل دلالات أخرى أبعد من حدود النرجس . . فالجسد بطبيعته مؤقت وزائل ، بينما يحمل الاسم ضمان الخلود لصاحبه ، ويحمل طاقة الرمز وخطى المعرفة تلك التى بدأ بها آدم صعوده وتمايزه منذ علمه الله الأسماء كلها .

هل هى الحفاوة بالتجريد الأعلى للرمز متمثلاً فى (**الاسم**) ؟ أم هى الحفاوة بدقة المعنى وتسمية الأشياء بمسمياتها ؟ أم هو اجتماع الضدين فى مفردة واحدة ؟

وإذا كانت (**الجدارية**) هى نقش أو رسم على جدار ، يردنا للشواهد ، فـإن وضـع (**الاســم**) هو تحديد وتعين ، انتقال من سديم لا يحد إلى وضوح المحدد من مجهول إلى معلوم مسمى .

ولأن تجربة الديوان هى (**غبش بين بابين : الدخول والخروج**) الحياة والموت . . فإن الجدارية محض شاهد فى لحظة الانتقال هذه بين شاطئ الموت وشاطئ الحياة . . إنها شاهد بعث ، وشاهد ميلاد ، ولهذا يبدأ الديوان بتحديد الاسم (**هذا هو اسمك** .. **قالت امرأة**) .

ويردنا تكوين الجملة فى (**هذا هو اسمى**) إلى عنوان قصيدة أدونيس الشهيرة بديوان (**وقت بين الرماد والورد**) . . وربما تذكرنا تقنية الأحرف المفككة بشعراء آخرين . . لكنه الدرس الجمالى ليس فقط فى فاعلية تناصه ولكن فى قدرته على تحرير اللغة . وتحرير المفردة من كل محاولات امتلاكها أو احتكارها لحساب فرد أو ذاكرة .

(**هذا هو اســمك**) . . . وغابت امرأة لتتركه فى البياض المطلق وحيداً . . يشد النهاية للبداية ، ويجدد طيرانه مستعيداً رحلته إلى الحرية من حلم إلى حلم ، كلما (**احترق الجناحان اقترب من الحقيقة**) لينبعث من الرماد مرة أخرى ، جديراً بحياته وسعيها الطويل ليكون ما سيصير . .

لم يولد ليعرف أنه سيموت ، بل ليحب محتويات ظل الله يأخذه الجمال إلى الجميل . . ويستعيد صورة الشاعر الذى أراد يومًا أن يصيره (لغته مجاز للمجاز لا يقول ولا يشير) . . شريط طويل من الذاكرة الحية الجديدة ، الذاكرة الصديقة . .

فنحن القادرين على التذكر قادرون
على التحرر ، سائرون على الخطى
جلجامش الخضراء من زمن إلى زمن

تؤكد (**الذاكرة**) (**الحلم**) ليلتقى الزمنان (**الأمس والغد**) ، أو تلتقى السيرتان (الشخصية والإنسانية) فى زمنية واحدة هى شرط الوجود حيث الموت هو العدم ، . أبدية بيضاء لا زمان ولا عواطف ، على حين يظل الزمن شرطًا للحياة أو بتعبير هيدجر (**الوجود هو الزمن**) .

ولعل الإشارة إلى الفيلسوف الألمانى الوجودى (**هيدجر**) وهى الإشارة الوحيدة بالديوان التى خص فيها درويش مفكرًا أو كاتبًا غربيًا إلى جانب الشاعر الفرنسى (**رينى شار**) تكشف الإشارة عن عمق العلاقة بفلسفة هيدجر حيث (**الإيغال فى الذات**) وحيث الزمن هو شرط الوجود ، والوجود هو (**الوجود مع**) :

كلما فتشت عن نفسى
وجدت الآخرين ، وكلما
فتشت عنهم ، لم أجد منهم
سوى نفسى ،
الغريبة
هل أنا الفرد الحشود ؟

إن الإيغال فى الذات المتواصل يكشف دائمًا عن حضور الآخر . . هكذا يجابه درويش الموت برغبة مفعمة بالحياة لترميم القلب من أثر الجفاف العاطفى ، ولإتمام قراءة طرفة بن العبد ومواصلة العمل على ظهر السفينة .

إنها الحياة مشروطة بالآخر فى مواجهة العدم ، الوحيد فى البياض . .

ورغم استدعاء (**هيدجر**) فى إطار صورة شعرية ، يجالس فيها الشاعر رينى شار ، فى إحالة إلى صيحة هيدجر الشهيرة (**الشعراء فقط هم الذين سيخلصوننا**) حيث الشعر هو (**صناعة الكلمات من صمت الصوت ، وهو ما يبنى بيت الوجود**) أى (**اللغة**) . .

ورأيت رينى شار
يجلس مع هيدجر
على بعد مترين منى
رأيتهما يشربان النبيذ
ولا يبحثان عن الشعر

رغم صيحة هيدجر . . فإن محمود درويش لا يلتفت كثيراً للشعراء المخلّصين ولتلك الصيحة ، ويلتقى بهيدجر فى الحفاوة باللغة (**بيت الوجود**) إلى حد التساؤل : هل الموت هو ما يكون أم أنه موت اللغة ؟ بل إن ما يشغله حين يقترب الموت هو سؤال ثقافى محدد : (**ما لغة الحديث هناك ، دارجة لكل الناس أم عربية فصحى**) ، وهل كتاب واحد يكفى مع اللاوقت أم مكتبة كاملة . .

أما الشعراء الذين سيخلّصوننا . . فإن درويش يناهض صورة الشاعر المخلّص ، تلك الصورة الأسطورية التى يواصل منذ سنوات بعيدة الخروج عليها نازلاً عن صليبه ، لا يرجو العلو ولا يبشّر بالقيامة . .

. يكسر صورة (**البطل**) ، (**المسيح**) ، (**الضحية**) . . يكسر صورة الشاعر (**النبى**) لحساب الإنسان العادى (**لست أنا النبي لأدعى وحيّاً** ،

وأعلن أن هاويتى صعودى) . . إنه يريد أن يحيا كإنسان حر ، يواصل عمله ، وينتقل من حلم إلى حلم ، ويشهد الناجون من الطوفان . . يحيا كإنسان عادى ، ينقذ القلب من جفافه العاطفى ، ويتمم قراءاته يحيا لينخرط فى حياة تتجدد .

وأريد أن أحيا
فلى عملى على ظهر السفينة .. لا
لأنقذ طائراً من جوعنا أو من دوار البحر
بل لأشاهد الطوفان
عن كثب . وماذا بعد ؟ ماذا
يفعل الناجون بالأرض العتيقة ؟

لقد تغيرت طريقة النظر إلى الواقع ، ليس فقط على المستوى الأيديولوچى ، ولكن على مستوى التحول اللغوى أيضًا ، مخالفًا كل توقع جمالى ، معيداً إلى اللغة حياة أخرى لم تكن موجودة سابقًا ، إنه يخرج من فعل استسلام اللغة (**لتشابه الرمل**) يخرج عن نمطية الكتابة كرد فعل . . الكتابة المقاومة للمحتل والتى تحولت إلى (**كلاشيهات**) يجب هدمها ؛ لإعادة بناء وتشكيل واقع لغوى مغاير ومختلف ، يخترق الحاجز ويمارس حياته العادية .

ليخترق الحاجز ويمارس حياته العادية ، حياته الإنسانية بحرية كاملة هى فى جوهرها مقاومة لشرط الاحتلال .

لقد تم تعديل صورة البطولة ومقاومة المحتل بالصورة الإنسانية ؛ وهو التحول الذى وصفه درويش على مستوى اللغة بأنه (**حماية الشعرية من**

الشعرية) حيث لا يستجيب للغنائية وتدفق الإيقاع والنغمة ، بل يقوم على العكس بكبح جماحها فى نوع من الاقتصاد الجمالى أو (التقشف) كما يحب أن يسمى تحركه الجمالى الأخير . . هكذا يخطو متعمداً نحو نثرية عفوية تكبح الصورة . . .

هزمتك يا موت الفنون جميعها
هزمتك يا موت الأغانى ، فى بلاد
الرافدين ، مسلة المصرى ، مقبرة الفراعنة
النقوش على حجارة معبد . هزمتك
وانتصرت ، وأفلت من كمائنك
الخلود .

ولعل شاعرية تلك الجملة تتجلى فى حالتها الإنسانية وعمقها الحضارى أكثر من تجليها فى مفرداتها الغنائية .

* * *

الشعر اختصاصى(*)

لا يحتاج **محمود درويش** إلى تقديم ، كما لا يحتاج الحوار معه إلى مناسبة . وبمعنى أصح . . فإن كل فرصة للحديث معه هى لحظة مناسبة تمامًا .

ومع ذلك فلدينا المناسبة ؛ إذ يأتينا درويش هذه المرة من رام الله حافة الوطن وعمق الزنزانة ، شاهدًا الصراع اليومى غير المتكافئ بين أحجار الصبية ، التى تحاول رسم حدود الوطن القادم ، وقنابل الاحتلال وطاولات المفاوضات التى تحاول تثبيت أبشع سرقة فى التاريخ ، كما يأتينا درويش وقد كتب « **جدارية** » التى أرادها معلقته ووصيته الشعرية . وإذا كان درويش يصر دائمًا على رهانه الشعرى دون غيره ، فإن قدر شعره الارتباط بقضية بلاده ، لا يفارقها وإن حرص الشاعر .

عن القصيدة ، القضية ، السلطة ، وحرية الإبداع سألنا درويش ، وأجابنا بما نعتقد أنه جديد يستحق أن يطلع عليه قراء « أخبار الأدب » .

- نبدأ من يومك العادى فى رام الله .. إلى أى مدى وصل استقرارك .. علاقتك بالقراءة والكتابة .. هل تشعر بالفعل أنك ؛ داخل وطنك ؟

ليس بعد ، أبذل كثيراً من الجهد النفسى لكى أتدرب على الإحساس الحقيقى ، بأننى فعلاً عدت ، وأننى فى وطنى ، ولكن لا أنجح دائمًا ، لأنى لم أعد بالمفهوم العميق والشخصى . .

(*) أخبار الأدب - القاهرة - ١١/ ٢/ ٢٠٠١م .
شارك فى الحوار الزميل عزت القمحاوى .

أنا لم أعد إلى مكان خرجت منه ، لم أعد إلى مكان تربطنى به علاقة شخصية ، ماضى ، ذكريات وما إلى ذلك مما يكوّن ملامح الوطن الشخصى لكن على مستوى الوعى أنا سعيد بأننا استطعنا العودة إلى جزء من هذا الوطن ، أما العودة الحقيقية برأيى فهى بتثبيت حق العودة للاجئين أو النازحين . . أى العودة الجماعية .

أما على المستوى الفردى فتلك مسألة سجالية داخل كل واحد منا . . العودة بهذا المعنى مستحيلة ، فلا أحد يعود إلى ما كان وإلى من كان .

وأنا أيضًا لا أقبل اختزالى بمهاجر وعائد ، وإلا كان ذلك يعنى أن حياتى أو تجربتى الشعرية أغلقت دائرتها . . وهذا يعنى أن الوطن يحمل تعريفًا بأنه عكس المنفى ، وبأن المنفى عكس الوطن . . المسألة أكثر تركيبًا من ذلك . . ولا نحتاج إلى استعارة أبى حيان التوحيدى فى النقاش حول مفهوم (**الغربة والغريب**) .

- لكنك تمنيت المنفى فى الوطن .. تمنيت الشرطى والأسوار والسجون ؟

تمنيت ذلك لسبب بسيط ، لكى نتحول إلى أناس عاديين وطبيعيين . . فالإنسان لا يتحرر تحررًا طبيعيًا ، إلا إذا حقق شروطًا يستطيع فيها أن يعبّر عن رفضه لوطنه .

الإنسان الحر هو الذى يتمتع بوطن له حق التصرف برفضه أو قبوله ، ولكى يبلغ هذه الدرجة من الحرية لابد أن يكون له وطن .

لكن كما قلت هذا الوطن لم يتحقق بعد . . فمازلنا على رقعة من الأرض ، هى ما أسميها ساحة خلفية للوطن يمارس عليها الشعب الفلسطينى شكلاً من أشكال السلطة الأولية . .

مازلنا داخل أقفاص غير متصلة جغرافياً ، مازال الوطن محتلاً . . السيادة الفلسطينية لا تتجاوز ٢٪ من الضفة الغربية وغزة . . لا يمكن أن تقسم الوطن إلى A, B, C ، فحتى الشروط الأولية الجغرافية والسياسية لتحقيق مفهوم أعمق للوطن هى غير متوافرة حتى الآن .

- منذ عودتك وهناك متغير جديد هو الانتفاضة ، كيف تمارس يومك العادى فى ظل المواجهة اليومية ، وحتمية الرد الإسرائيلى ؟

يوم من أيام القلق العادى فقد تحولت هذه الحياة إلى نمط غير مفاجئ ، لأن الإغلاق والحصار موجود قبل الانتفاضة وأثناء الانتفاضة وبعد الانتفاضة . . ومازال للإسرائيليين حق الإشراف على مخارج ومنافذ المدن والقرى . . والدخول إلى فلسطين لايزال يمر عبر البوابة الإسرائيلية . . هذا النمط من حياة الإغلاق قائم دائمًا . . ربما اشتدت وطأته حيث حول الحصار الوطن إلى معتقل .

تخدير الإحساس

- والموت اليومى .. ألا يطرح سؤال إلى متى وكيف يمكن ترشيده ؟

أصبح الموت مللاً دموياً ، يحزن بعض المشاهدين ويسلى البعض الآخر ، تحول إلى صورة تليفزيونية . . وكان يؤلمنى كثيراً طريقة المشاهدة ، فقد اعتاد الناس هذا المسلسل ، وعندما تكون الحلقة أضعف دراميّاً ؛ أى أن يكون عدد الشهداء أقل ، كان بعض الجمهور يصاب بالإحباط ، وكنت دائمًا أتساءل ، ما النسبة المئوية للموت التى تجعل العمل الدرامى صالحًا للمشاهدة ؟!

وفى تحول الانتفاضة إلى (صـــورة) يجب أن تتطور باستمرار ، والفصل القادم يكون أكثر عنفًا وأكثر جاذبية من الفصل السابق ، أمر يعبر - لا أقول عن عجز ولكن - عن تحول الجريمة إلى مشهد شبه عادى . . كما حدث فى حرب الخليج حيث استطاعت C.N.N أن تحول الحرب إلى ألعاب نارية . . قنابل برتقالية على خلفية دخانية سوداء . . ولأنك لا ترى الموت . . فإن ما يبقى فى الصورة جماليات خطرة جدًا . . تقتل الضمير وتخدر الإحساس بالغضب .

- خارج الصورة التليفزيونية الخطرة كيف رأيت أنت الموت اليومى .. مذبحة أم انتفاضة ؟

من جانب الفلسطينيين الانتفاضة عمل بطولى ، لأن الفلسطينيين وصلوا إلى مرحلة من الإحباط جعلتهم يعبرون عن إصرارهم على تصحيح عملية السلام . . لأن شروط السلام الإسرائيلى غير مقبولة على الإطلاق .

ولن يكون صحيحًا التسرع فى اعتبار الانتفاضة ضد السلام ، ولكنها ضد السلام الإسرائيلى وليس ضد السلام المرتبط بشروطه الحقيقية وهى العدالة والتحرر .

كان الفلسطينيون الذين أحسوا أنهم أدخلوا إلى نفق مظلم . . كان عليهم أن يكسروا هذا الطوق ، ولهذا كان الانفجار الذى لم يكن كله عفوياً . . ولكن انفجاراً واعيًا . . الانتفاضة ليست بطولة عبثية ولكن بطولة واعية . . كانوا يعرفون أنهم لن يصححوا شروط السلام ، إلا إذا عبروا عن ذلك بإرادة ووعى .

أما من جانب إسرائيل فكان التعامل معها طبعًا سلوكًا إجراميًا . . القتل محدد يوميًا .

- ربما لم تكن الانتفاضة ضد السلام الإسرائيلى فقط ، ولكن فى جزء منها كانت موجهة ضد سلام السلطة الفلسطينية أيضاً ؟

متفقون على أن الانتفاضة ضد السلام الإسرائيلى وإذا كانت هناك تداعيات لمفهوم السلام الإسرائيلى لدى بعض الأوساط والمسئولين بالسلطة يصبح هذا الشمول صائبًا . . لكنى لا أستطيع . . ضميرى لا يسمح لى أن أقول بأن السلطة الفلسطينية قد قبلت مفهوم السلام الإسرائيلى . . بل إن موقف السلطة السياسى منذ كامب ديفيد حتى الآن، وموقفها التفاوضى يلتقى مع مفهوم الانتفاضة وبالتالى أنا لا أرى تناقضًا بين الانتفاضة والسلطة ، بل أكاد أقول إن هذه الانتفاضة هى السلطة ، أما إذا كان بعض المسئولين الفلسطينيين يقبل السلام الإسرائيلى فالانتفاضة توجه له رسالة مضادة .

- لكن ذلك ما حدث - فالذهاب إلى واشنطن على خلفية الاعترافات الأخيرة لكلينتون ، حيث لاحق عودة ولا قدس هو قبول للتفاوض على ما دون الحد الأدنى ؟

أولاً السلطة الفلسطينية - وياسر عرفات بالذات - لم تقبل بأفكار الرئيس كلينتون . . لكنه أبدى رفضًا بطريقة إيجابية حيث طرح تصحيحات وتفسيرات تصلح مدخلاً للتفاوض . . إذًا كانت (**نعم**) مشروطة بشروط تتنافى مع الأفكار نفسها ، وكانت عملية دبلوماسية دقيقة نجا فيها عرفات إلى حد ما من كثافة الضغوط الأمريكية ، وبعض

الضغوط الإقليمية المتأثرة بالموقف الأمريكي . . أنقذ الوضع الفلسطيني وأنقذ نفسه من أزمة ، كان بوسعه أن يورثها للإدارة الجديدة بإعلان أن المسئولين عن تعثر عملية السلام هم الفلسطينيون ، وهو ما تحاشاه عرفات .

أما أن يكون في الانتفاضة تناقض مع السلطة . . فذلك موضوع مؤجل . . ستكون الانتفاضة ضد السلطة في حالة قبول السلطة بشروط السلام الإسرائيلي .

صدام القداسات

- لكن الواضع الآن أننا وصلنا إلى طريق مسدود بصدام القداسة ، فهناك ما يشبه الإجماع الإسرائيلي على رفض حق العودة ، باعتباره إجهاضًا للطبيعة الدينية للدولة ورفض التسليم بالسيادة الفلسطينية على الأقصى بدعاوى وجود الهيكل ؟

علينا أن نقرأ استطلاعات الرأى الإسرائيلية بانتباه شديد . . خذ مثلاً استطلاعات الرأى حول التنافس بين المرشحين لرئاسة الحكومة الإسرائيلية (**باراك وشارون**) . . القراءة المتسرعة للاستطلاعات قد تثبت أن المجتمع الإسرائيلي غير جاهز للسلام ، وأن اختيار الحرب هو اختياره لشارون .

هذه هي القراءة الأولى . . ولكن في الاستطلاع نفسه نقرأ أنه في حال استبدال باراك بشيمون بيريز فإن شيمون بيريز يتقدم على شارون . . إذًا هذه قراءة تعني أن المجتمع الإسرائيلي قد تغير وعيه تجاه مسألة الحرب والسلام .

فأى القراءتين نقرأ . .

الجدل فى المجتمع الإسرائيلى حيوى جداً ، وعلنى جداً وشفاف جداً . . وكل المخاوف الإسرائيلية حول الحاضر وحول المستقبل مطروح الآن للنقاش وعلى المنصة .

- لكن الانتفاضة أحدثت تغيراً ما ؟

بالتأكيد فهى لم تكن كلها عبثية ، كما يدعى البعض ، فهناك بعض المحرمات فى الديانة السياسية الإسرائيلية تم تخطيها ، على سبيل المثال موضوع القدس العاصمة الأبدية الموحدة لدولة إسرائيل . . هذا كان إجماعًا وكان شبه ديانة سياسية . . الآن فكرة تقسيم القدس مطروحة للبحث . . صار هناك جاهزية على مستوى الوعى الإسرائيلى بقبول تقسيم القدس . . هذه نقطة كانت تعتبر من المقدسات التى لا تخترق .

وهناك موضوع (**المستوطنات**) . . أصبح هناك تيار كبير فى إسرائيل يقبل التخلى عن المستوطنات السياسية ، على الاحتفاظ بالمستوطنات ذات الحيوية الأمنية .

أما موضوع اللاجئين فهو أصعب المشكلات . . لأن هناك ما يشبه الإجماع خاصة من المثقفين والكتّاب الإسرائيليين على أن حق العودة يعنى القضاء على الطابع اليهودى الإسرائيلى . . لكن الحقيقة أن هذه الدولة لم تكن أبدًا نقية طيلة تأسيسها . . بها الآن مليون عربى وأكثر من مائة ألف غير يهودى . . إذًا هى منذ البداية تحمل جنين (**ثنائية القومية**) . لكن مشكلة حق العودة بالنسبة لهم ، هى مشكلة تتعلق بنظرتهم إلى أنفسهم . . وإلى أنهم غير مسئولين عن تهجير الشعب الفلسطينى . .

وهناك بعض الآراء تدعو لأن تتحمل إسرائيل جزءاً من المسئولية عن مأساة الشعب الفلسطيني ، وبعضهم يدعو إلى تقديم اعتذار كبديل لتحمل تبعات هذه المسئولية . . لكن لا يرضى الشعب الفلسطيني وهم يدّعون أن المطالبة بحق العودة لدى الفلسطينيين ، هي عودة إلى الماضي ، متناسين أنهم عادوا إلى ألفي سنة إلى الوراء . . أي إنهم يطالبون بحق العودة إلى الوراء فقط لليهود .

المسألة لها أكثر من أداة قياس . . لكن في اعتقادي أن المشكلة الأساسية و ، التي تجعل السلام مستحيلاً هي مشكلة اللاجئين . . طبعًا عندما يطالب الفلسطينيون بها ، فهم لا يعنون أن ٤ ملايين فلسطيني سيعودون ، ولكن من الناحية المبدئية هذا الحق مقدس .

الانتفاضة .. قوة الروح

- رغم انعدام تكافؤ السلاح حققت الانتفاضة كثيراً ، من أين لها تلك القوة .. ولكن كيف نضمن استمرارها وتقويتها ؟

أخطر شيء على الانتفاضة أن نطالبها بأن تتحول إلى جيش نظامي ، وأن تحتكم إلى سلاح التفوق الإسرائيلي . . لأن الاحتكام إلى هذا السلاح يضمن نتائجه .

الانتفاضة محكومة بأن تكون حركة شعبية تعبر عن نفسها بالوسائل المتاحة . . أما الاحتكام لخوض حرب نظامية ، فذلك هو الانتحار الذي تريده إسرائيل .

قوة الانتفاضة هي قوة الإرادة والروح الفلسطيني هي قوة العناد . . لأنه لا سلام مع الاحتلال ، ولا سلام قبل التحرر . .

واستعداد الشعب الفلسطيني لكل هذه التضحيات رغم القوى غير المتساوية ، ورغم الإسناد الإقليمي الهش والموقف الدولي والأوروبي والأمريكي المخجل . . حيث إسرائيل هي قيمة في الوعي الغربي . . هي نوع من القيمة ، هي ليست دولة . . هي قيم هي معنى هي فوق أية اعتبارات إنسانية وتاريخية . . هي فوق التاريخ هي رغم التاريخ ، وبالتالي هي منزهة من أي محاكمة ، أو نقد في الوعي الأوروبي .

بهذه الشروط ، الشعب الفلسطيني يخوض معركة غير متكافئة وليس له من مفر أنه يصارع بقدر ما يملك من أدوات الصراع كنوع من التعبير عن إمكانة تغير المحيط من حوله وتغير الوعي الإسرائيلي والوعي العربي والوعي الدولي . . هو لا يفعل أكثر من إخصاب فكرة أو تقديم رسالة أو إحراج العالم .

- منذ بداية مسيرة التفاوض يطرح الموضوع سياسياً (كصراع حدود) بينما ثم رؤية غالبة أخرى حول (صراع الوجود) ... كيف ترى علاقات الصراع ؟

المفارقة أن الوجود المهدد هو الوجود الفلسطيني ، وبالتالي تثبيت الوجود الفلسطيني والدفاع عنه هو المهمة الأولى . . وعلينا إذا كنا مصريين على صك المصطلح (**صراع وجود**) أن نعرف أنه صراع وجود الشعب الفلسطيني . . لكن الوقوف طويلاً أمام هذه المعادلة لا يفيد لأن هناك مفارقة دائمة ، وأنت تبحث عن حل للمشكلة الفلسطينية . . أنت محكوم بالبحث عن حل للمشكلة الإسرائيلية .

قدر الفلسطيني وهو يبحث عن حضوره في تاريخه ، حضوره على جغرافيته أنه مطالب في الوقت نفسه أن يطمئن المصير اليهودي . . هذه هي المفارقة أو اللعنة التي لحقت بالفلسطينيين . . أنهم لا يستطيعون أن يتقدموا بحلول عملية لتثبيت حقوقهم ، إلا إذا رافقتها حلول أخرى من أجل طمأنة الإسرائيلي بأن وجوده غير مهدد . .

إن علينا أن نطمئن الإسرائيلي بأن وجوده غير مهدد ، وليس علينا أن نقول له إن وجوده مهدداً !

- ماذا عن رؤيتك للصراع في جانبه الثقافي ؟

إن نبقى محصنين ضد قبول الرواية الإسرائيلية ، الصراع الثقافي حول فلسطين . . الإسرائيليون يتصرفون باعتبارهم عائدين إلى وطنهم ، ونحن نقول إننا لم نولد في وطن آخر . . الصراع الثقافي هو الشرعية التاريخية لكل طرف منا . . إحدى مآسي إسرائيل الكبرى إنها غير واثقة من الشرعية العملية والسياسية التي حصلت عليها . . إنها بحاجة إلى شرعية تاريخية وهذا ما يفسر جنونهم بالهيكل والحفريات حوله أنهم مهووسون بالبحث عن شرعية أركولوجية لم يجدوها .

- والفلسطينيون ؟

نحن مبرهنون بعلاقتنا في بلادنا وعلاقتنا بتاريخنا إلى حد الكسل . . سنوات طويلة لم نجد أنه من الضروري أن ندافع عن حقنا دفاعات أركولوجية وثقافية وتاريخية ، من فرط ما نحن مشبعون بشرعية . . لكنهم يجروننا إلى مناقشة حول الماضي . .

نحن فى مرحلة نقاش سياسى محض ، وكثير من الأسئلة الثقافية الكبرى من مصلحتنا السياسية تأجيل وضعها على جدول أعمال السياسى لأنها معرقلة . . ثم لماذا على الثقافة أن تبحث عما يعرقل إمكانية حل هذه المشكلة . . ولكن بالطبع يجب على الثقافة أن تدافع عن قناعة المجتمع العربى . . أن تدافع عن خطر قبوله بالرواية الصهيونية للتاريخ .

- ألا ترى أن هذا الهدف يحتاج إلى مسافة يأخذها المثقف بعيداً عن السلطة التى تتفاوض ؟

لابد من ذلك . . يجب ألا تجر الثقافة إلى مائدة المفاوضات ، مع أنه يجب ولابد للمفاوض من خلفية ثقافية . . يجب عليه معرفة المصطلحات والمفاهيم التى يطرحها المفاوض الإسرائيلى . . وإلا ما معنى هذا الجنون بما يسمى بهيكل سليمان .

لا تصدق المسألة الدينية . . هناك البعض متدين ، ولكن (**الدين**) يستخدم لديهم من أجل تلافى تلبية مطالب الفلسطينيين بحقوقهم .

لكن المثقف ليس مضطراً لقبول مثل هذه المقترحات ، ولا مضطراً فى التفاوض حولها . . لكن الحوار الثقافى لايزال بعيداً .

لا هنا .. ولا هناك !

- ما هى المسافة بين محمود درويش والسلطة ؟

من المعروف أننى لست فى السلطة .

- البعض يراك سلطة بحد ذاتك ؟

سلطة أدبية .

- وربما أيضاً سلطة سياسية ؟

لا أنا لست فى السلطة ، كذلك أنا لست فى المعارضة . . المعارضة المؤطرة المشكّلة ، أنا لست هنا ولست هناك .

ولكنى كثير الإصغاء إلى دوافع واعتبارات السلطة فيما يتعلق بالمسألة الوطنية ، وليس مسألة الإدارة . . فلدى كثير من النقد والتحفظ وحتى التجريح للجانب الإدارى للسلطة تحديداً ، فيما يخص علاقتها بالديمقراطية والفساد . . لكن فى المسألة الوطنية مازلت أرى أن السلطة تعبر حتى الآن عن مشروع وطنى ، يخص الشعب الفلسطينى ، وذلك بدفاعها عن حقوق الفلسطينيين بهذا الشكل برغم كل الضغوط التى تتعرض لها . . لازالت السلطة تمثل البرنامج الوطنى للشعب الفلسطينى . . وربما حين تستقل أو تنجز مشروعها يكون هناك حديث آخر .

ستحاكم السلطة المحاكمة النقدية الحقيقية عندما توقع على اتفاق لا يرضى . . وقد يكون ذلك سريعًا ، لكن حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أحكم على السلطة بأنها قد تخلت عن الحقوق الوطنية الفلسطينية .

- لكنك كشاعر تجابه شاعريتك وغنائيتك وأسطورتك وجمهورك دائمًا فلماذا لا تجابه السلطة أيضاً ؟

ربما لأنى اقتربت من الشيخوخة . . ربما لأنى أريد أن أكسر هذه الأسطورة . . أنا ولا مرة ادعيت أننى صاحب مشروع اجتماعى

للتغير . . ولا مرة ادعيت أنى راديكالى .

- شعرك يقول إنك راديكالى ؟

إذًا من الأفضل أن نختار . . من الأهم الشاعر أم قصيدته . . الأغنية أم المغنى .

أنا رهانى الحقيقى ليس على السياسة أو على النضال الاجتماعى . . رهانى الحقيقى على الشعر وأرجو أن تحاصر محاكمتى فى هذا المجال .

أنا لم أدع أننى مناضل كبير ، لم أدع أنى (**عنتر**) ، لم أدع ذلك حتى فى مقالاتى ، لا توجد هذه المصطلحات لا أكتب هذا . . ربما لأنى لا أعلق أى أمل على السياسى . . ربما لأنى لا أومن بالعمل السياسى .

أنا أستحق النقد العنيف من المثقفين تجاه هذا الموقف . . لكن هذا لا يعنينى . . فقد مررت بتجارب قد تكون غنية وقد لا تكون ، مررت بمراحل كثيرة فى حياتى ، ووصلت إلى استنتاج أنى أضعت الكثير من الجهد والوقت على ما ليس من اختصاصى . . وأنا من الذين يدعون إلى أنه آن للفلسطينيين أن يتخصصوا ، كنا كلنا متخصصين فى قراءة ٤٢٤ ، وكنا متخصصين فى المقاوضات . . كل النشاط الثقافى والإبداع الفلسطينى منصب فى مجال تخصص السياسى ، والسياسيون أحيانًا يتحولون إلى شعراء .

لقد وصلت إلى استنتاج إنى أريد أن أكون شاعرًا فقط إذا أمكن . . وكلمة أريد أن أكون شاعرًا إذا أمكن لا تعنى أنى منفصل عن الواقع أو عن المجتمع . . لكن رهانى النوعى هو رهان إبداعى ، وليس رهانًا ثقافيًا أو سياسيًا .

- الأمور ليست منفصلة بهذا الشكل ؟

إذًا أنا أعبّر ، فالشاعر لا يكتب من فراغ . . ونشاطى السياسى والفكرى والاجتماعى والثقافى . . كله بالقصيدة ، ولا أرى أنى قادر على أن أمارس عملاً خارج مجال الشعر . . أنا غير مؤهل . . ربما . .

هذا ضد كل كلام عن المثقف . . فالمثقف يجب أن يكون دائم التعليق والانخراط فى أى مشكلة سياسية أو اجتماعية أو وطنية . . لكن كل ذلك أكرسه فقط فى العمل الشعرى .

- لكن وجودك إلى جانب السلطة ومعها هو تجميل لها ؟

السلطة من ؟ هم أصدقائى . . لدى علاقات ممتازة بالجميع على مستوى السلطة ، وعلى مستوى المعارضة غير الأيديولوچية . . أنا علاقتى ممتازة مع كل الناس ما عدا حماس . . أنا لا أعرف أحدًا من حماس .

لا أريد أن أقول إنى رجل توازنات ، ولكننى رجل حوار مع الجميع . . أما فكرى وثقافتى ومواقفى فيعبر عنها شعرى .

- هل تضغط علاقاتك الشخصية وصداقاتك على مواقفك ؟

ربما . . هذا سؤال شديد الذكاء . . لكن أنا لا أستطيع أن أشتم ياسر عرفات . . أخجل منه . . عندما استقلت بعد أوسلو . . مارس علىّ ضغوطًا شديدة . . وكنت عندما أذهب إلى النوم ، أحس بالحرج كيف أخيب رجل مثل أبى ؟ وأشعر بعذاب حقيقى بين الموقف الأخلاقى وموقفى السياسى ورفضت أن أستمر . . ومارس علىّ ضغوطًا كثيرة لأن أدخل معه إلى فلسطين ، وأن أكون وزيرًا للثقافة وهذا معروف . . مارس على ضغوطًا لا يتحملها بشر ، وكنت أيضًا ممزقًا ، ليس لأنى متحير فقد كنت حاسمًا ولكن لأنى لا أريد أن أخيب هذا الرجل . . بيننا محبة وصداقة وعشرة طويلة . لهذا إذا كان عندى رأى مضاد له ،

أقوله بشكل مباشر ، ولكن لا أعلنه . . يمكن هناك نوع من المجاملات أو من الحرص على تاريخه .

- أو تعالجه بالقصيدة ؟

أو أقوله بالقصيدة . . لكن أنا لست رجل مواقف يومية . . لست رجل أعلام ، لست رجل مزاودات . . لكن هذه العلاقات تجعلنى أحرج . . وعلى سبيل المثال إذا كان هناك شخص معتقل أسهل شىء أن أوقع بيانًا ، لكن أنا أذهب وأحل المشكلة . . أتحدث مع المسئولين السياسيين أو الأمنيين . .

المثقف ربما يريد أن يسجل موقفًا لا أن يحل المشكلة المثقف . . ربما لا يحب أن يحل المشاكل ، ولكن يحب أن يأزم المشاكل . .

قد أكون على خطأ . . قد يكون فى ذلك نوع من القبلية أو العشائرية . . لكن أنا لا يعنينى تسجيل المواقف .

- هل تكون قصيدتك أكثر ثورية منك ؟

ربما . . مع أنى أحاول أن أخفض صوت قصيدتى . . أحاول أن أبرِّدَ لغة القصيدة لأسباب جمالية . . هذا لا يعنى أنى أتخلى عن فهمى ومواقفى . . لكنى أحاول أن أجد حلولاً أخرى ، وهذا لا يقتل ما تشحن به القصيدة . .

أنا مأخوذ وخاصة أن لدى إحساسًا ، تأخر بالوقت . . لدى شعور إنه لم يعد هناك وقت لأنجز شيئًا ، ومن المعروف أن أشد خصوم شعرى

هو أنا . . وبالتالى فأنا أسابق الزمن ؛ كى أطور ما لم يتح لى أن أطوره فى السابق .

كتبت وصيتى

- فى قصائدك الأخيرة (جدارية) (محمد الدرة) يعود صوتك مرة أخرى إلى غنائية كنت حريصًا على تجاوزها وتعود إلى بعض أدواتك الجمالية التى كثيراً ما جابهتها فى شعرك ؟

أين يظهر هذا الرجوع ؟

- بالجدارية ..

كيف ؟

- فى القصيدة الديوان ، فى بعض الإيقاعات المستخدمة ، وبعض المفردات التى سبق لك استخدامها بل وبعض الصور الشعرية ، فى الغنائية ، فى استخدام الأسطورة .

لا يوجد مشروع شعرى لشاعر فى خط مستقيم أو فى خط بيانى ستصاعد . . البحث عن الشعر يأخذ عدة مستويات ، عدة أشكال وإيقاعات . . ولا يوجد اقتراح نهائى ، وذلك من حسن الحظ ، وإلا كان انتهى الشعر نهائياً .

فى قصيدة (**جدارية**) كنت أكثر انتباهًا أولاً للمسألة (الوجودية) وليس للمسألة (الشعرية) وكنت أعتقد أنى أكتب وصيتى ، وأن هذا هو آخر عمل شعرى أكتبه . . ومادمت أكتب وصيتى الشعرية فعلىّ أن أستعير وأستخدم كل أسلحتى الشعرية فى الماضى وفى الحاضر . . هذا

يفسر الملاحظة الدقيقة أن هناك تقاطعًا بالقصيدة ، هى عودة إلى إيقاعات سابقة وعودة إلى مفردات سابقة ، وعودة إلى نفس سابق . . لكن القصيدة فى كليتها ليست كذلك . . لأن هناك مناطق بالقصيدة ميتافيزيقية . . لقد حاولت أن أضع فى هذه القصيدة كل معرفتى وأدواتى الشعرية معًا باعتبارها (معلقتى) . .

وإذا كان لابد من تلخيصى فلتكن (جدارية) هى الملخص . . فالقارئ القادم ليس لديه الوقت لقراءة أى شاعر ، حتى ولو كان شكسبير . . سيختزل أى شاعر بنص ما ، خاصة أننا مقبلين على زمن الإنترنت . . لقد كنت أرشح هذه القصيدة لتكون هويتى الشعرية . . ومن هنا يمكن أن يكون هناك بعض رجع الصدى .

هذا على مستوى الهم الشعرى . . لكن كان هناك شيئًا آخر ، هو الاشتباك مع الشعر العربى ، ووضعه فى علاقته بالقارئ . . الشعراء عاجزين عن حل المعادلة بين أنا (الفردية) وأنا (الجماعية) . . لقد دخلنا فى حداثة . . فهم منها عربيًا أن ليس لها علاقة بالواقع ولا بالتاريخ ، وهذا عكس مفهوم الحداثة الأصلى .

- ماذا تعنى بالفهم العربى للحداثة ؟

الحداثة العربية الآن تعرف بتعريفات بسيطة جداً ، وهى :

١ - التى تعبر عن ذات الشاعر وليس لها علاقة بالواقع .

٢ - ممنوع استخدام العواطف . . هى ذهن مجرد .

٣ - ممنوع أو يجب أن لا يكون لها زمن ولا مكان . . أى إنها لاتاريخية .

٤ - وهذا هو الأهم أن تتحرر كلياً من الإيقاع والوزن .

أى قصيدة تتنافى مع هذه الشروط التعسفية فى تعريف الشعر الحديث كانت تعتبر غير حداثية أو تقليدية .

الآن الحداثة تكفر بنفسها . . هناك مراجعة خاصة للعلاقة بين النص والواقع . . بين الشاعر والقارئ . . يجب أخذ الناس بعين الاعتبار .

للقصيدة حياتان : حياة كاتبها والحياة التى يحددها قارئها . . هناك دائمًا مستويات للقراءة . . تبقى صالحة لأنها تعبر من هذا الزمن التاريخى إلى زمن تاريخى آخر ، وإلا كيف تفسر بقاء قصائد مناسبات عديدة . لأنها لم تكن مناسبة بالمعنى الوظيفى ، ولكن المناسبة لم تكن إلا ذريعة لكتابة القصيدة . . الذريعة سقطت لكن النص الشعرى بقى . هناك أسئلة تقليدية هى التى ستنفذ الحداثة الشعرية ، وتحل بعض المشاكل .

- هل أنت مكون بهذا الهاجس ؟

تمامًا . . صحيح عندما أكتب لا أفكر بأحد ، فليس صحيحًا أن القارئ رقيب . . لكن إذا كانت ذاتى غير ممتلئة بالآخر صارت القصيدة مغلقة .

قليل من التواضع

- ما تدافع عنه هو بالضبط ما يأخذه عليك الحداثيون ؟

وأنا ماذا أكون بتعريفهم . . لست شاعراً حداثياً ! !

- ربما .. !!!

نريد تواضعًا متبادلاً لكل أصحاب الاقتراحات الجمالية ، فكثير من

شعر ما بعد الحداثة هو مكتوب فى زمن شعر الانحطاط العربى . . هذه الألاعيب والبهلوانيات الشكلية موجودة دائمًا . . ليست ابتكار القرن العشرين . . هذه حداثة عصر الانحطاط . . لكن أنا أيضًا ضد شعر الحماسة . . ضد شعر الخطابة . . ضد شعر الإثارة . . أنا لا أستخدم أدواتى الجمالية من أجل إثارة أحد ، ولكن من أجل إحياء القصيدة وربطها بتاريخيتها . . فأنا من أنصار الرأى بأن لا تطور ولا حداثة فى الشعر العربى ، إلا من داخل تاريخه ، وفى علاقته بالشعر الإنسانى العام .

ثم ما الداعى لأن نتخلى عن ثروات إيقاعية وجماليات اللغة العربية . . مقابل ماذا ؟

لماذا أستبدل الموسيقى بالنص ؟

لماذا أستبدل البلاغة بالركاكة اللغوية ؟

لماذا ؟ ولخدمة ماذا ؟

لكى أقول إنى حديث . . هذه ليست الحداثة .

كما أننى لا أطلب عضوية فى نادى الحداثة الشعرى . . أنا أعتبر نفسى عضواً مؤسسًا .

- فى قصيدة (محمد الدرة) كسرت الموقف والحالة الساخنة الواقعية بمفردة غريبة عن المشهد والشارع .. هكذا بدت (حمامة بيكاسو) مفردة مقحمة ؟

القصيدة موضوعية حاولت أن أدّعى فيها الحياد ، ولم أقدم عواطف كبيرة ، وأعتقد أن هذا النوع من الحياد مؤثر جدًا . . لكن هناك دلالة

فكرية فى استخدام حمامة بابلو بيكاسو . . فالطفل بالقصيدة لم يكتب على الجدران أن حريتى لن تموت ، فهو ليست لديه حرية وليس لديه سلام . .

حمامة بيكاسو هى أشهر رسم فى القرن ٢٠ للسلام ، وهى إشارة معنوية أفضل من أن أقول (ليس هناك سلام) إذا قلت ذلك سميت الشيء باسمه ، ولم تعد هناك استعارة ، وأنا أعتبر الاستعارة هى أساس الشعر ، هى معنى المعنى فى الشعر .

- كيف قمت بتبريد القصيدة ؟

باللغة وبالصور . . هناك استبعاد كامل لتسمية العدو ، واستبعاد كامل لاستخدام كلمة القتل والاغتيال والرصاص . . كل أدوات الجريمة شبه مستبعدة للتدليل على بساطة المطلوب .

- خاصة وأن لديك الصورة التليفزيونية ؟

هذه منافس كبير فالكل شاهد المشهد ، فلا أستطيع أن أصوره تصويراً سينمائياً . . بهذه المناسبة ، أتساءل لو كانت هناك C.N.N فى عصر هوميروس هل كان يكتب (الإلياذة) !! المؤكد أنه سيكتب (الأوديسا) لأنها رحلة داخلية ، أما حرب طروادة والمعركة كلها فربما لا .

- التقنيات الحديثة تغيّر من مفهوم الشعر ؟

بالتأكيد . . التقنيات الحديثة تدفع الشعر إلى مجال تخصص . . الآن الكاميرا تحمل أعباء كثيرة عن القصيدة والشاعر . . وبالتالى لم أكن

بحاجة لوصف المشهد . . أنا بطئ فى الكتابة . . منذ أكثر من ٢٠ عامًا لم أكتب قصيدة فى يوم واحد ، إلا هذه القصيدة (**محمد**) ، ولم أكن أريد أن أكتب قصيدة ولكن كنت أكتب شهادتى .

أنا شاعر محتشم

- هناك ظاهرة الكتابة الشهوانية .. كسر التابو والخروج الجنسى والدينى .. أظن أن لك موقفاً من هذه الكتابة ؟

مبدئيّاً لا أعترض على حرية المبدع فى كسر أى تابو ، ولكن ضمن مشروع إبداعى حقيقى . . أما إذا كان هذا الكسر للاستفزاز فقط ولا يفيد العملية الإبداعية ، وليس جزءًا عضويّاً من النص ، أو من نسيج الرواية أو القصيدة يصبح أمرًا مجانيّاً . . صحيح أنا لا أكتب هذه الموضوعات . . أنا شاعر محتشم . . لكن أحب الشعر (**الإيروسى**) ، ومن أجمل النصوص الأدبية هى النصوص الإيروسية . . ولكن لا أحب (**البورنو**) أو الأدب الإباحى . . ليس لأن لى موقفًا مضادًا للجنس ، ولكن دفاعًا عن الإثارة الجنسية أفضل (**الإيروسية**) على (**الإباحية**) . . حتى من الناحية الشهوانية ، العمل الإيروسى يخدم أكثر من العمل الإباحى . .

- بأى معنى أنت شاعر محتشم ؟ ولماذا أنت شاعر محتشم ؟

لأنى خجول . . شعرى فى المرأة ليس شعرًا (**استعماليّاً**) . . المرأة فى شعرى ليست موضوعًا لإثارة المتعة ، ولكنى أتعامل داخل النص باحترام كامل للمرأة . . لإنسانيتها وكينونتها ولشخصيتها المستقلة التى أعترض

على ذوبانها فى الرجل ، كما أعترض على ذوبان العاشق فى العاشق . . أعتقد أنه دائمًا يكون هناك كائنان غير متحدين ، متجاوران . . متحاوران . . لأن الاتحاد تلاشى . . ولذلك أعامل المرأة بآدمية وباحترام داخل النص .

- وهل الكتابة الإباحية لا تحترم المرأة ؟

الكتابة الإباحية لا تحترم المرأة . . الإيروسية أمر آخر ، فالإيروسية تظهر جماليات تسكن فى الظلال .

العملية الجنسية لا تتم بالشارع ، لابد من ظلال ما ، من تكتم ما ، من سرية ما ومن إثارة ما ، وتسمية الأشياء بأسمائها تقتل المتعة .

- هناك كتابات إباحية عديدة جديرة بالاهتمام، وهى ضمن مشروع إبداعى وثقافى .. مثل كتابات هنرى ميللر ؟

قلت أنا لا أعترض على ذلك . . لكن ضمن فكر ما وضمن مشروع حقيقى . . لكن المشكلة فى إبداعنا العربى أنه لا يقوده فكر واضح وليس جزءًا من منظور ثقافى . . هو ذلات عواطف ، ذلات قلم ، نزوات هفوات . . ليس جزءًا من منظور ثقافى يريد أن يحدث تنويراً ، ولكن دائمًا هناك (**مجانية**) .

أغلب الشعر العربى الحديث لا يقوده فكر أو فلسفة ، ولكن يقوده ما يسمى (**هبط عليه الوحى**) . . المشكلة لدى بعض الكتّاب العرب أنهم شديدو التقديس لعفويتهم ، يعتبرون الكتابة الأولى هى الكتابة الأخيرة . . لا يؤمنون بالتنقيح أو بالتحرير أو بإعادة الكتابة . . ومادامت جاءت هكذا عفو الخاطر فلتبقى هكذا .

- وكيف تتعامل مع عفويتك ؟

أنا لا أقدس ولا أعلق أهمية على أى نص أكتبه للمرة الأولى ، لابد أن أكتبه ٥ أو ٦ مرات . . وأتخلى عن كثير من الأوراق . .

الكتاب الغربيون أصلاً لا تصدر كتبهم كما كتبوها . . هناك دائمًا محرر بدار النشر ، يختصر ويختزن ويقدم ويؤخر ويبدل . . أما نحن فليس لدينا تقاليد (**التحرير**) . . ولو لدينا هذه التقاليد ، لكان كثير من أعمالنا قد شطبت أو اختصرت ، ولكان الكثير من شعرنا قد أبيد .

نحن لدينا إيمان (**بالسليقة**) أكثر مما ينبغى ، لدينا إيمان بغريزة الكتابة أكثر من وعينا .

لكن مبدئياً حكمى على العمل الأدبى هو حكم أدبى بغض النظر عن أخلاقياته . . بل وأصعب شىء وأخطر شىء هو تسليط الأخلاق رقيبًا على الأدب ، شرط أن يكون أدبًا .

كما أننا ونحن نهاجم سلطة الرقابة الرديئة ، علينا أيضًا أن ننتقد الأدب الردئ . . ولا يجوز أن ندافع عن الأدب الردئ بحجة أن هذه هى حرية التعبير .

- جئت إلى مصر هذه المرة فى ظل أزمة ثقافية مصرية ، تمت خلالها مصادرة بعض الكتب، وقدم وزير الثقافة قراءة أخلاقية للروايات، وما تبع ذلك من تداعيات .

أعتقد أنه يجب أن نفصل بين حرية الكتابة وحرية التعبير ، وحرية تدخل السلطات فى هذا الأمر . . القاضى الوحيد الشرعى فى هذه المسألة هو الضمير الثقافى . . هو الذى يقبل أو يرفض ، وهو الذى يحجب الشرعية أو يعطيها .

أما المسألة الأخلاقية وهى بالفعل مسألة معقدة فى العالم كله . من له سلطة تقيم أخلاقية الأدب ؟

أولاً يجب أن ننزع الأخلاق عن الأدب . . وضع الأدب أمام الأخلاق يدخلنا بتأويلات لاحد لها ؛ خاصة وليس هناك مرجعية . . فلكل واحد فهم مختلف عن الآخر . . كذلك فى فهم الحرية مختلف عن الآخر هذه أمور أولية . . يجب أن نتفق على أن الكاتب لا يتدخل فى عمله إلا الكاتب أو القارئ . . ليس القضاء وليس الرقابة وليس وزارة الداخلية .

- **أيضاً وليس وزارة الثقافة ؟**

وزارة الثقافة يحق لها التدخل فى منشوراتها ، كما قال نجيب محفوظ . . إنها كناشر لها الحق فى أن تقبل أو ترفض ، ولكن ليس لها حق أن تطبع وتصادر . . أنا أعرف ناشراً فرنسياً (**جيروم لاندو**) صاحب (**منشورات منتصف الليل**) قال لى إنه لم يطبع أى كتاب داخل داره كما كتبه مؤلفه . . إنه يتدخل دائمًا ، فيما عدا أعمال الفيلسوف (**جيل دى لوز**) الوحيد الذى طبع كتابه كاملاً . . حتى صمويل بيكيت كان ينقح له طبعًا بالتشاور معه .

جاءته مرة (**مارجريت دورا**) بروايتها العاشق ، وكانت رواية ضخمة من ٣٠٠ صفحة . . قرأها فى ليلة واحدة ، ثم قال لها روايتك كبيرة يمكنك أن تبنى روايتك من جديد من هذه الصفحات العشر . . بالطبع غضبت مارجريت . . ولكنها عملت باقتراحه ، وكتبت رواية (**العاشق**) بصورتها الحالية ، وباعت مليون نسخة . . ممكن لناشر آخر ألا يتدخل . . هى أمور نسبية .

- وهل تقبل تدخل ناشر فى قصيدتك بالحذف والاختزال والتبديل والتأخير؟

أنا أتوسل أصدقائى وناشرى وزملائى - وأحيانًا ناس لا علاقة لهم بالشعر - أن يبدو رأيًا فى قصائدى قبل النشر . . بل إنى شديد الإصغاء لرأى الصديق العادى غير المتخصص ، كما أنى شديد الاستجابة للنقد ، ولكن ليس بالإكراه .

عين المحب وعين الرقيب

- المقصود القراءة بعين المنع والمصادرة والحذف .. هل تقبل من ناشرك حذف مفردة أو مقطع من القصيدة لأنها تخدش الحياء العام ؟

أنا ضد هذا . . المهم دائمًا من هو مصدر القراءة ، فقد يضىء لى صديق أو حتى خصم أمورًا ما . . قد يرى أن هذه المفردة قد تجرح شيئًا ما ، لكن أنا الحكم الوحيد وأنا صاحب القرار الأخير . . أنا أحب أن أخلق ما يشبه إجماعًا بسيطًا حول نص ما ، ولكن لا أتحرر من التأثر بالآراء التى أستمع إليها من أشد الخصوم .

- وماذا لو جرحت القصيدة ..

هل تؤمن بأن هناك ثوابت بالمجتمع على القصيدة ألا تتجاوزها ؟

أحيانًا جرح الحياء العام يكون مطلبًا أخلاقيًا ومفيدًا ، فالأدب هو تاريخ من التمرد على أخلاق السادة واستبدالها بقيم جديدة . .

فقط أقول إذا كانت هناك مجانية ، أى ليست جزء من العملية الإبداعية والبحث عن قيم أفضل ، يكون التخلى عنها أفضل .

- تم مصادرة أشعار أبي نواس وهي خروج ضمن مشروع إبداعي ؟

أبو نواس يحيرني . . هو شاعر كبير من أهم الشعراء ، الذين أحدثوا ثورة في حقبة تاريخية محددة من تاريخ الشعر العربي ، ولكن بعض الأبيات الشعرية التي تصف عماية اللواط ، أعتقد أنها ليست من إنتاج أبي نواس ؛ لأنها جماليا وكصياغة شعرية تتنافى مع إيقاع أبي نواس الشعري ومع منظوره . هذه (**البذاءات**) إذا كانت مثبتة في التراث . . فليس من حق أي معاصر أن يعبث بها .

- حتى ولو خدشت الحياء العام ؟

حتى ولو خدشت الحياء العام . . أبو نواس صار له مئات السنوات يخدش الحياء العام ، ولم يثر عليه أحد . . غزلياته وخمرياته وإباحياته كتبت في العصور الذهبية للدولة الإسلامية في العصر العباسي .

إذًا كلما كانت الدولة أو الحضارة في أعلى مراحل تقدمها . . كانت أكثر تسامحًا وقبولاً للتعددية واللعب بالأخلاق والقيم . . وكلما هبط المستوى الثقافي العام وحتى المستوى السياسي في المجتمع ، أصبح أكثر تزمتًا وأكثر اعتداء على ماضيه وتاريخه .

بالطبع التراث ليس مقدسًا . . لكن يجب ألا يمس .

- تسمح بخدش الحياء العام للكتب التراثية ، ولا تسمح بذلك للكتب المعاصرة؟

هذا تعبير فضفاض . . فمن يحدد الحياء العام .

- هذه عبارة أخلاقية كيف يمكن تطبيقها على الأدب ؟

هناك حياء . . بل عدة مفاهيم للحياء أن يدور نقاش حولها ، فهذا يجب أن يتم ، أما خدش الحياء فلا . . أى إن الممنوع هو المنع .

- هناك ظاهرة عكسية وهى التركيز على هذه الكتابات الممنوعة .. مثل إصدار الكتابات المحرمة لأبى نواس أو غيرها من النصوص الممنوعة .. ألا ترى أن هذا يمثل وجها آخر من وجوه التوظيف الأخلاقى للأدب ؟

هذه اعتبارات تجارية . . أبو نواس يجب أن يؤخذ بكليته . . لا أستطيع أن آخذ منه إباحياته أو فقط خمرياته ، ولكن يجب أن يؤخذ بمجمل أعماله . . الوقوف أمام إباحياته لا يثبت أنه شاعر كبير ، أو أنه قام بأى ثورة . . أنا أعتقد أن أبا نواس كان يلعب ، كان يعبث . . وهذه مسألة تخصه ، أما نحن وطالما أن النص قد تم تسجيله والذى سجلته هى الدولة العباسية . . فكيف نمارس عليه الرقابة بأثر رجعى .

* * *